النار دون أن يشاركوهم في عذابهم، أم دخول هؤلاء معهم في الجنة دون أن يشاركوهم في ثوابهم أماذا من خلاف الفضل، فليس من خلاف العدل.

والدعاء على أية حال لا يعني جواز عدم تحقق المدعو به لولا الدعاء كالحق في ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ بل هو تعلق بالله وتذلل أمام الله، وأن حكمه حق على أية حال وإن كان في ظاهر الأمر غير حق حيث لا يلائمنا.

وذلك أدب الدعاء في كافة الأحوال، وحتى إذا كان الداعي في حال وقوع المدعو به فضلاً عما قبله.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

هذه الرسالة الغالية أن يكونوا مذيعين لفصل الحكم من رب العالمين، إنها منقبة لا تُسامى بسواها ولا تُساوى، ثم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هي رسالتهم الأخيرة حيث أمروا بأمر الله أن يخاطبوا أصحاب الجنة بدخولها.

إذاً فمناداة أصحاب الجنة والنار هي قبل الدخول فيهما، وهي مواقف العالين من رجال الأعراف حسم الموقف، ثم هم يدخلون الجنة ومعهم قسم من الأدنيين الذين هم معهم ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾.

ذلك ومما يؤيد أصالة القصد الى أعالي رجال الأعراف دون الأداني، أن الآخرين غير محصورين في الرجال، بل ونساؤهم أكثر من رجالهم، وأما الأولون فهم بطبيعة الحال رجال كالمعصومين المحمديين عليهم السلام، وأما فاطمة الصديقة فقد تكون منهم كما في ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ. . .﴾[1]

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

أم هي غير مشاركة معهم لمكان أنوثتها، وعلى أية حال فخصوص القصد من رجال الأعراف الأدنين مرفوض.

كما ولا تعني «رجال» الملائكة إذ لا نساء فيهم، وهم يقابلون نساء من جنسهم، مهما عنت رجالاً من الجن على هامش رجال من الإنس كرسل منهم عالين، حاكمين على قبيلهم، أم لهم بين فريقي أصحاب الجنة وأصحاب النار من الجن.

ثم مكانهم المتميز ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ ومعرفتهم المتميزة أصحاب الجنة وأصحاب النار لحدٍّ يعرفون المستكبرين من أهل النار بينهم، لا فقط معرفة إجمالية بسيماهم المعروف لدى الكل حيث هنا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾[1]، وهناك ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي كلٍّ واحد من آحاد الفريقين، لا - فقط - كلاً من الفريقين، تثبت لهم معرفة قمة متميزة بسيما كل واحد منهم، حيطة معرفية بما عرفهم الله ليحكموا هناك بما يحكم الله.

هذا التميز وذلك هما مما يميّزهم عن كلٍّ أصحاب الجنة، فهم محمد ﷺ والمحمديون من عترته عليهم السلام، المتميّزون على كافة السابقين والمقربين وأصحاب اليمين.

فرجال الأعراف حيث يكلمون كلا الفريقين بما يكلمون هم الشهداء المخصوصون بالكرامة في مسرح ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[2] فهم مأذونون بإذن خاص بكلٍّ إخلاص حتى يكلموا أهل الحشر أجمع بما يشاء الله ويرضى، أفهم بعد من الأدنين وليس للعوان بينهم وبين العالمين ذلك النصب المتميز يوم الدين.

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٨-٤١.
(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

كلّ ذلك، إضافة إلى أنا لا نتلمح أية فزعة وهول لهم في أعرافهم، في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، والهول شامل ذلك اليوم كلّ أهل الحشر ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[1] - ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[2]!.

إذاً فقد لا تشمل رجال الأعراف في ظاهر التفسير إلّا أقرب المقربين وأسبق السابقين، دون الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فلا هم - بالفعل - من أهل الجنة ولا أهل النار، - اللهم إلّا تأويلاً أنهم على هوامشهم - ثم ولا صراحة هنا ولا لمحة أن رجال الأعراف يتطلبون إلى الله السماح، فإنما هو الحكمية بين الفريقين والحكم بدخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار.

إذاً فعساكر البراهين القرآنية في آيات الأعراف وسواها تقرر موقفاً حاسماً لرجالها لا يناسب كل المعصومين فضلاً عن الأدنين من المؤمنين، فلا يُصغى إلى أحاديث الأدنين تفسيراً، إلَّا تأويلاً.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ معرفة متميزة عن كلِّ أصحاب الجنة فضلاً عن أصحاب النار، و﴿رِجَالًا﴾ هنا هم رجال متميزون بسيماهم من أصحاب النار فـ ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أموالاً وأولاداً وسائر الجموع المحتشدة حصولاً على العزة والقوة، «و» لا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ بجمعكم على الله وعلى عباد الله ورسله.

﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ الأكارم من أصحاب الجنة ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠١-١٠٣.

كأنكم أنتم أصحاب الرحمة دونهم، أم هم وإياكم سواء في العذاب؟! كلّا، بل: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ أنتم الصلحاء ﴿ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

أجل هؤلاء رجال الأعراف، فمكانهم في المحشر ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ أعراف الحجاب والسور المضروب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، ومكانتهم أنهم رسل من الله في ذلك الموقف الحاسم. رسل شهود في معرفة كلّ بسيماهم، يشاهدون كلّ نفس خيرة وشريرة في مقامها الخاص من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، ورسل قضات في تعيين المقامات هناك، ثم هم خارجون عن القبيلين إذ لا محاسبة لهم لدخول الجنة، وهم المؤمّرون أن يأمروا أصحاب الجنة لدخول الجنة كما أن مؤذنهم يؤمر بذلك الأذان، رسالة ربانية عالية، مما تدل على أنهم هم الأعلون في تلك العرصات.

ذلك «وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاء على عباده ولا يدخل الجنة إلّا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلّا من أنكرهم وأنكروه»[1].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾:

حِوار بين أهل الجنة والنار في دار القرار، يوم التناد، يُخيّل فيها إلى أهل النار أن لأهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله كما كانت هناك إفاضة في دار الفرار، فإذا هم مفاجَؤون بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تحريماً بحريم الاضطرار دون اختيار، إذ مضى يوم التكليف الاختيار، ولات حين فرار، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾:

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٤٢ / ٢٥٦ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

اتخذوا طاعتهم الحقة وهي الدين الحق ﴿لَهۡوٗا﴾ يلتهون به حيث يلهيهم عما يُعنى لهم ﴿وَلَعِبٗا﴾ به يلعبون حيث كانوا به يستهزئون، فاتخذوا دينهم: الطاعة، مخلداً إلى أرض الشهوات، فلا يطيعون - إذاً - إلَّا لهواً ولعباً ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ بما انغروا بها حيث أبصروا إليها فأعمتهم ولم يبصروا بها لتبصّرهم ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نعاملهم معاملة الناسي إياهم على علمنا بهم، تحريماً عليهم ما يقدم للضيفان من النعم ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ عامدين لاهين لاعبين، وكـ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فنحن نجحدهم كما جحدوا، وننساهم كما نسوا جزاءً وفاقاً.

ذلك كيف لا يشغلهم ما هم فيه من النار عن الماء وسائر رزق الله؟ حيث الماء يُخفّف عن حرِّ النار وسائر رزق الله يسدّ عن الجوع، والعطش والجوع هما مما لا ينسيان في أية ملابسات[1].

وفي تقدُّم ﴿ٱلۡمَآءِ﴾ على ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ ذكراً تقدم له على سائر رزق الله واقعاً حيوياً فللماء دور دائر في الحياة ليس لسائر رزق الله، وقد

(١) نور الثقلين ٢: ٣٦ في كتاب الاحتجاج عن عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال: حج هشام بن عبد الملك فدخل المسجد الحرام متكياً على يد سالم مولاه ومحمد بن علي بن الحسين صلوات الله عليهم جالس في المسجد فقال له سالم: يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي بن الحسين، فقال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم، قال: اذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: يحشر الناس على مثل قرصة النقي فيها أنهار منفجرة يأكلون ويشربون حتى يفرغ الناس من الحساب، قال: فرأى هشام أنه قد ظفر به فقال: الله أكبر اذهب إليه فقل له: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟
فقال أبو جعفر عليه السلام: هم في النار أشغل ولم يشتغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فسكت هشام لا يرجع كلاماً.
وفيه في تفسير العياشي عن أحدهما عليهما السلام قال: «إن أهل النار يموتون عطاشاً ويدخلون قبورهم عطاشاً ويدخلون جهنم عطاشاً فترفع لهم قراباتهم من الجنة فيقولون: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[١] وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة سقي الماء»[٢].

ذلك، ولأن الغرور هو إظهار النصح واستبطان الغش وهما من فعل المختار، فتراه كيف ينسب إلى الحياة الدنيا وليست هي مختارة؟

والجواب أن الحياة الدنيا هي حياة الإنسان فيها دون نفسها، فالغرور - إذاً - هو من فعل الإنسان حيث ينظر إلى الدنيا فينغر بها، ولا ينظر بها فيبصّر، فالحياة الدنيا هي بطبيعها حياة الغرور: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٣].

ثم النسيان من الله هو تناسي العارف وكما هم تناسوا عارفين، فلقد تناسوا لقاء يومهم هذا عارفين، فالله يتناساهم عن رحمته عارفاً فلا يفيض عليهم منها إلّا عذاباً مهيناً.

و«دينهم» كما لمّحنا تعم الدين الحق فطرياً وعقلياً وشرعياً حيث اتخذوه لهواً يعرضون عنه، ولعباً يلعبون به ويستهزئون، والدين الباطل وهو الشهوة المطاعة، توغلاً في اللهو واللعب: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) الدر المنثور ٣: ٨٩٠ عن ابن عباس أنه سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: . . ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

وهكذا ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[١] فمهما كانت المشتهيات مشتركة بين قبيلي الإيمان والكفر يوم الدنيا فهي خاصة بالمؤمنين يوم الدين: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾[٢].

وحقاً أقول: «ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت، ولقد كاشفتك العِظات، وآذنتك على سواء، ولَهِي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، والنقص في قوتك، أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرَّك، ولرب ناصح لها عندك متَّهم، وصادق من خبرها مكذَّب، ولئن تعرَّفتها في الديار الخاوية، والربوع الخالية، لتجدنها من حسن تذكيرك، وبلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك، والشحيح بك، ولنعم دارُ من لم يرض بها داراً، ومحل من لم يوطِّنها محلاً، وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم»[٣].

فيا أيها الإنسان ما جرّأك على ذنبك، وما غرَّك بربك، وما آنسك بهلكة نفسك، أما من داءك بُلول، أم ليس من نومك يقَظَة، أما ترحم من نفسك ما ترحم به غيرك، فلربّما ترى الضاحي من حرّ الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يُمضُّ جسده فتبكي رحمة له، فما صبّرك على دائك، وجلّدك بُمصابك، وعزّاك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك، وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته، فتداوَ من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كبرى الغفلة في ناظرك بيقظة، وكن لله مطيعاً، وبذكره آنساً، وتمثل في حال توليّك عنه إقباله عليك يدعوك إلى عفوه، ويتغمدك بفضله، وأنت متولّ عنه إلى غيره -.

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) (الخطبة ٢١٤).

فتعالى من قوي ما أكرمه، وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته، وأنت في كنف ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضله، ولم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مَطرف عين في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته، وايمُ الله لو أن هذه الصفة كانت في متفقَين في القوة، متوازنَين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق ومساوئ الأعمال -.

إذاً فـ«كونوا» عن الدنيا نُزّاهاً، وإلى الآخرة وُلّاهاً، ولا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا، ولا تَشيموا بارقها، ولا تسمعوا ناطقها، ولا تجيبوا ناعقها، ولا تستضيئوا بإشراقها، ولا تُفتنوا بأعلاقها، فإن برقَها خالب، ونطقها كاذب، وأموالها محروبة، وأعلاقها مسلوبة، ألا وهي المتصدية العَنون، والجامحة الحرون، والمائنة الخؤون، والجَحود الكنود، والعَنود الصَّدود، والحَيود المَنود، حالها انتقال، ووطأتها زلزال، وعزها ذُل، وجدها هزل، وعُلوها سُفل، دار حَرْب وسَلْب، ونَهْب وعَطَب، أهلها على ساق وسياق، ولِحاق وفِراق، قد تحرت مذاهبها، وأعجزت مهاربها، وخابت مطالبُها، فأسلمتهم المعاقل، ولفظتهم المنازل، وأعيتهم المحاول، فمن ناج معقور، ولحم مجزور، وشلوٍ مذبوح، ودم مسفوح، وغاضّ على يديه، وصافق بكفيه، ومرتفقٍ بخديه، وزارٍ على رأيه، وراجع عن عزمه، وقد أدبرت الحيلة، وأقبلت الغِيلة، ولات حين مناص، هيهات هيهات قد فات ما فات، وذهب ما ذهب، ومضت الدنيا لحالِ بالِها ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

(١) (الخطبة ٢٣٣).

لقد تمت الحجة عليهم يوم الدنيا إذ ﴿جِئْنَٰهُم﴾ بجمعية صفات الهدى ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: قرآن ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ تفصيلاً لكلِّ شيء ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّا رباني يحلق على كلِّ شيء، حال كون الكتاب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم أولئك الذين حالتهم حالة الإيمان بالحق المرام وإن كانوا لمّا يؤمنوا حيث لم تصلهم دلائل الإيمان، فهم مؤمنون فطرياً وعقلياً، وهم ناظرون دلائل كامل الإيمان شرعياً، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

ذلك، وهنا ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ إضافة إلى ما فيها من مثلث التأكيدات بحرفي التأكيد وجمعية الصفات، نجد في مفعولية «هم» لـ«جئنا» تقديراً للجار، كأنه سبحانه جاء إليهم ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ والباء قد تعني كلا المعية والسببية: جئنا إليهم بسبب الكتاب، ومصاحبين الكتاب، ومثلها: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[2] - و﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[3].

فلقد كان في نزول القرآن مجيئاً لرب العالمين إلى كافة المكلفين حيث يدل بنفسه على الله بتوحيده وصفاته وأفعاله، وكأنه جاءهم بنفسه.

فلو أنه أراهم نفسه لم يزدهم معرفة على ما عرفهم إياه بكتابه، ولذلك أصبح شاهداً لنفسه رباً، ولرسوله رسالة، ولكلِّ ما أراده منهم دلالة باهرة جاهرة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ...﴾[4] ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٨.
(٤) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥١، ٥٢.

بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[١]. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[٣].

ذلك، فقد يُزيل القرآن كلَّ حجاب بيننا وبين ربنا معرفياً إلَّا المستحيل زواله وهو حجاب الذات وحقيقة الأفعال والصفات، فلم يبق في الدور إلّا ذلك المثلث الذي ليس ليزول على أية حال!.

ذلك، ثم ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ تفصيلاً يُزيل كافة الغشاوات عن وجه الحق المرام، فلا خفاء لما فصله، حيث فصله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بتفصيله، وعلم بالمكلفين، وعلم بتصاريف الكلام، وعلم بالحق المُرام وما يحتاجه الأنام ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤]!.

فهل يُفترى بعدُ على الله أنه أغمض في كتابه، وأعضل فيه لحدٍّ لا يفهم إلّا بالحديث، ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فـ «قوم يؤمنون» هم الذين يعرفون تفصيله، استنباطاً لمرادات الله، من منشورِ ولاية الله كما أمر الله، فإنه السبب الوحيد الوطيد، الوتيد على أعماق الفطر والعقول والقلوب، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

فكما أن معادن كتاب التكوين مختلفة الوصول إليها والحصول عليها حسب اختلاف المساعي، كذلك كتاب التدوين، فإن لكلٍّ من حقائقه المخزونة قدر سعيه ووعيه، دونما بخل وعضل في دلالة الكتاب نفسه على ما يرام.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٦.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٣.